أن تكون سودانيًا

تجليات تاسيتي أرض الأقواس
في فضاءات الحداثة

أن تكون سودانيًا

تجليات تاسيتي أرض الأقواس
في فضاءات الحداثة

عبد الوهاب أحمد الأفندي

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرســة فــي أثناء النشــر - إعــداد المركــز العربــي للأبحاث ودراســة السياســات

الأفندي، عبد الوهاب أحمد

أن تكون سودانيًا: تجليات تاسيتي أرض الأقواس في فضاءات الحداثة/ عبد الوهاب أحمد الأفندي.

568 صفحة؛ 24 سم.

يشتمل على ببليوغرافية (صفحات 533-542) وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-730-6

1. الهوية - السودان. 2. السودان - تاريخ. 3. السودان - أحوال سياسية. 4. السودان - أحوال اجتماعية. 5. الوحدة الوطنية - السودان. 6. الإسلام والسياسة - السودان. 7. السودان - أحزاب سياسية. 8. الخصائص الوطنية - السودان. أ. العنوان.

320.5409624

العنوان بالإنكليزية

To Be Sudanese: Manifestations of Ta-Seti, Land of the Bow, in the Spaces of Modernity

by Abdelwahab Ahmed Al Effendi

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر

المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 1991839 00961
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

© حقوق الطبع والنشر محفوظة للمركز

الطبعة الأولى
بيروت، آذار/ مارس 2026

المحتويات

تمهيد 15
مقدمة: ميلاد تاسيتي أرض الأقواس 25
الصحراء وغاباتها 32
ما بعد الغابة والصحراء 38
فرضية الكتاب 41
فصول الكتاب 46
الفصل الأول: الكنداكة والقيصر: الجغرافيا العنيدة والملهمة لتاسيتي "أرض الأقواس" 61
أولًا: القيصر والكنداكة 62
ثانيًا: في هوية المكان: كوش 64
ثالثًا: من الدفاع إلى الهيمنة: عصر بيي (بعانخي) وخلفائه 65
رابعًا: العصر المروي 68
خامسًا: النوبة المسيحية 70
سادسًا: أيام رماة الحدق 72
سابعًا: في هوية المكان ومكان الهوية
الجغرافيا العنيدة والملهمة لـ "أرض الأقواس" 78

الفصل الثاني: "أقصر الدروب بين الأرض والسماء": مركزية الذات وجذور الهوية السودانية في نصوص ود ضيف الله 83

أولًا: مركزية سنار 85

ثانيًا: تبلور مركزية الذات السودانية: دخول علوم الدين 87

ثالثًا: دخول التصوف 88

رابعًا: "أقصر الدروب بين الأرض والسماء" 90

خامسًا: ود حسونة والعروج إلى السماء 94

الفصل الثالث: عوالم حاج الماحي: تجليات الهوية تحت وطأة الزلزال التركي-المصري 99

أولًا: صياغة اللغة وتوطين الأسلمة 103

ثانيًا: بين "الجغرافيا المقدّسة" ومعالم الوطن 106

ثالثًا: المسلم "الآخر" و"الجغرافيا المقدّسة" 115

رابعًا: لمحات سياسية في عهد الحكم الجديد 120

الفصل الرابع: عوالم الخليفة عبد الله: صاحب الثورتين 125

أولًا: إرهاصات المهدية 127

ثانيًا: معالم الخلافة 128

ثالثًا: الصراع الداخلي في عهد الخليفة 132

رابعًا: المجاعة وشبهات القبلية 134

خامسًا: بين دمشق والمدينة 135

سادسًا: "الثورات المهدية" 137

الفصل الخامس: عوالم عثمان دقنة: الهدندوي-الكردي
الذي جسّد الهوية السودانية 141
أولًا: ثائر في الانتظار 142
ثانيًا: الالتحاق بالثورة المهدية 144
ثالثًا: هوية جديدة وجندي لا يُقهَر 145
رابعًا: رجل واحد يهزم إمبراطورية 149
خامسًا: خلافات مع البجا 152
سادسًا: خطوط الاستقطاب الطائفي والقبلي 154

الفصل السادس: عوالم علي دينار:
التحديات الأبدية لتوحيد أهل دارفور 163
أولًا: سقوط السلطنة ونهوضها 164
ثانيًا: دارفور: الأوضاع تتداعى 165
ثالثًا: العودة إلى الفاشر 169
رابعًا: تحوّلات عوالم السلطان 171

الفصل السابع: عوالم بابكر بدري: رائد المخضرمين 179
أولًا: في خدمة الدعوة والجهاد 179
ثانيًا: بداية تبلور الهوية المهدوية 181
ثالثًا: في الاحتكاك العرقي والقبلي وتعقيدات الولاءات 183
رابعًا: في دولة كِتشنر 187
خامسًا: ريادة التعليم الحديث 188
سادسًا: حياة في ثلاث حقب 190
سابعًا: بين الولاء للمهدية وللسلطة الاستعمارية 193

الفصل الثامن: عوالم فرانسيس ريجينالد وينغيت وحلقته،
صناعة السودان الحديث بين المهدية والإمبريالية 197

أولًا: البدايات العسكرية 198

ثانيًا: العقدة "الغوردونية" والزحف نحو السودان 199

ثالثًا: "فتح" السودان وإسقاط المهدية 203

رابعًا: السردار 205

خامسًا: "الإدارة السياسية للسودان" 207

سادسًا: المأسسة الإدارية عشية الحرب العالمية الأولى 212

سابعًا: إلى مصر والحرب 216

الفصل التاسع: الفضاء الهبرماسي وجيل المنعطف العروبي
بتسجيل حسن نجيلة وراويه الغامض 225

أولًا: المنعطف العروبي 227

ثانيًا: "إلى ما بالجزيرة من رفات" 233

ثالثًا: عام الثورات و"الوفدين" 234

رابعًا: الرأي الآخر 237

خامسًا: المنعطف الراديكالي 239

سادسًا: استعجال الثورة 244

سابعًا: تفجّر ثورة عام 1924 الفاصلة 247

الفصل العاشر: عوالم محمد أحمد المحجوب
ترسيخ الليبرالية العروبية من قاعدة مهدوية 257

أولًا: "موت دنيا" وانبعاثات أخرى 259

ثانيًا: من اللهو إلى جد الجد 262

ثالثًا: دوائر الهوية: من المهدية إلى الحداثة إلى العروبة 264

رابعًا: بين العروبة والأفريقانية 268

خامسًا: انتقادات 269

الفصل الحادي عشر: عوالم جوزيف لاقو
مفارقات الهوية وصراع الأشقاء 273

أولًا: جذور الهوية في حياة لاقو ومفارقاتها 274

ثانيًا: تعقيدات الحداثة والديانة 276

ثالثًا: المدرسة... فالتمرد وما بعدهما 278

رابعًا: من الكلّية إلى الأدغال 279

خامسًا: التشرذم السياسي وتحدّيات العمل العسكري 281

سادسًا: ما بعد ساترنينو: العوامل الخارجية 285

سابعًا: العامل الإسرائيلي 286

ثامنًا: السلام وإشكالاته 288

تاسعًا: ديناميات الاتفاقية وصراعات الجنوب 290

عاشرًا: انهيار اتفاقية السلام وسقوط نميري 293

حادي عشر: تعقيدات الهوية في سيرة لاقو 295

الفصل الثاني عشر: عوالم حسن الترابي
"القومية الدينية" في صراع الهوية 303

أولًا: المقابلة 304

ثانيًا: "كبير الصوفية الذي يغلي سمّه" 305

ثالثًا: العودة إلى الفقه 307

رابعًا: الخروج من الخلوة 309

خامسًا: الثورة والهوية "الإسلامية" 312
سادسًا: شقاق الإسلاميين 313
سابعًا: المصالحة الوطنية وما بعدها 315
ثامنًا: الجبهة القومية السودانية 316
تاسعًا: الانقلاب و"السوبر-تنظيم" والهوية "الشمالية" 317
عاشرًا: تجليات الهوية الترابية 321
حادي عشر: مساهمة الإسلاميين
في تعميق صراعات الهوية في السودان 326

الفصل الثالث عشر: عوالم الصادق المهدي
تراجيديا الهوية وشراك السياسة 331
أولًا: تجليات "المهدية الجديدة" ومفارقاتها 332
ثانيًا: المهدية وما بعدها 336
ثالثًا: المفاضلة بين مصر والبريطانيين 338
رابعًا: من الجَدّ إلى الحفيد 339
خامسًا: الحداثة الراديكالية 341
سادسًا: سجال بشأن عروبة السودان 343
سابعًا: الطائفية والسياسة بعد أكسفورد 345
ثامنًا: الصادق المهدي لاعبًا سياسيًا
رئاسة الوزراء وانشقاق الحزب 348
تاسعًا: "ثورة أيار/ مايو" وتبدّل التحالفات 351
عاشرًا: رئاسة الوزراء مجددًا 354
حادي عشر: حصاد المهدية الجديدة 359

الفصل الرابع عشر: عوالم أبيل ألير: السياسي "الجنتلمان" 365
أولًا: السلام ومتاعبه 367
ثانيًا: في تداعي الأشياء وإعادة بنائها 368
ثالثًا: نضال الهوية 371
رابعًا: "الوحدة" والتمرد الأول 372
خامسًا: مؤتمر المائدة المستديرة 374
سادسًا: صراع الهويات في الجنوب 375
سابعًا: انسداد المسار السلمي؟ 378
ثامنًا: الطريق إلى السلام 379
تاسعًا: نجاح المفاوضات 383
عاشرًا: تحديات الحكم الذاتي 385
حادي عشر: عمليات تمرد متلاحقة 388
ثاني عشر: إعادة التقسيم وانهيار الاتفاقية 391
ثالث عشر: العودة إلى الحرب 393
رابع عشر: ديناميات الحرب 395

الفصل الخامس عشر: عوالم عبد الخالق محجوب
تراجيديا أُم درمانية ستالينية؟ 399
أولًا: البدايات: في أحضان "صاحب الحوت" 400
ثانيًا: العاصفة المستمرة 404
ثالثًا: نحو المواجهة 408
رابعًا: الطريق إلى الانقلاب 413
خامسًا: نظام مايو وساعة الحقيقة 416
سادسًا: ما بعد الانقلاب: هلوسات ثيولوجية تحت الرصاص 419
سابعًا: تراجيديا النهايات 423

الفصل السادس عشر: عوالم جون قرنق دي مبيور
ابتلاءات السودانوية المسلحة وسراب "السودان الجديد" 429

أولًا: قرنق: البدايات 432

ثانيًا: انطلاق "الجيش الشعبي لتحرير السودان" 434

ثالثًا: التعامل مع التحوّل الديمقراطي 437

رابعًا: مسألة الهوية وبدايات تحرّك نحو السلام 439

خامسًا: تعثّر مسار السلام 441

سادسًا: تهاوي "السودانوية" 442

سابعًا: حصاد "السودانوية" 447

ثامنًا: بين الحركة والجيش، الرؤية والشخص:
زئبقية "السودان الجديد" 449

الفصل السابع عشر: عوالم منصور خالد
ألوان طيف الهوية السياسية 457

أولًا: لقاءات مبكرة في أزمان عاصفة 457

ثانيًا: أسرة دينية عريقة 461

ثالثًا: انعطافة يمينية 462

رابعًا: أميركا فالأمم المتحدة فالانعطاف يسارًا 464

خامسًا: الالتحاق بنظام نميري 464

سادسًا: ساعة المجد المايوية 466

سابعًا: عصر ما بعد مايو 467

ثامنًا: مرحلة قرنق 471

تاسعًا: فشل النخب الديمقراطية وسلام العسكر 472

الفصل الثامن عشر: عوالم فرانسيس دينق
زعيم قبلي تسنّم قمة الحداثة 477

أولًا: أول مبادرة سلمية سودانية 478

ثانيًا: تحت ظل الوالد 479

ثالثًا: أبيي وديناميات الهوية 482

رابعًا: التقلب في الثقافات عبر "الجسر الخفيّ" 483

خامسًا: ما بعد سلام 1972 486

سادسًا: العودة إلى (جنوب) السودان 487

سابعًا: انشغال مبكر بالهوية 489

ثامنًا: إشكالات رؤية دينق حول الهوية 493

تاسعًا: الهوية والعنصرية 501

خاتمة: أزمة الهوية وأزمة الصراع بشأن الهوية 507

"صحوة" الهوية ودرجات التهميش 508

تبلور الهوية "القومية" في السودان الحديث 511

الهوية "الوطنية/ القومية" الحديثة: قطيعة أم استمرارية؟ 517

عود إلى الحالة السودانية 520

المركّب الجنوبي 522

عن الصراعات العنيفة 525

نقطة أخيرة 529

المراجع 533

فهرس عام 543

تمهيد

جاء هذا الكتاب نتاجًا لحوارات وقراءات وتأملات ومساجلات استمرت سنوات؛ ذلك أن لسجالات الهوية في السودان تاريخًا طويلًا، ولكنها احتدّت في العقود الأخيرة، خاصة مع تفجّر تمرّد الحركة الشعبية لتحرير السودان في عام 1983، وتوسّله العنف لحسم سؤال الهوية كما يراها، وهو في الغالب منزلق خطير. فكما ذكر الفريق جوزيف لاقو في أحد حواراتي معه وهو يتناول هجوم الحركة على إقليم الاستوائية الذي ينتمي إليه: "إنك لا تقاتل شخصًا لتجعله صديقك. إذا قاتلته فإنه عدوك". وقد سبقت هذا سجالاتٌ سلمية عدة نعرض لها في هذا الكتاب.

من الصعب تجنّب سؤال الهوية في السودان، لأن السودان، إضافة إلى ما سبق، يقع عند ملتقى الثقافات ومنبع الحضارات. وقد وصفه الصديق المفكر الأفريقي الراحل علي مزروعي (وهو نفسه يمثّل تمازج حضارات أفريقيا وآسيا وأوروبا، كونه أفريقيًا خليجي الأصل، ومثقفًا عالمي النظرة) في مداخلة له في مؤتمر عُقد في الخرطوم في عام 1967، بأنه بلد متعدد الهامشية؛ فهو على هامش أفريقيا، وعلى هامش العالم العربي، وفي هامش دار الإسلام، وعلى هامش الدول الأفريقية الناطقة بالإنكليزية. وقد قلتُ له ممازحًا عندما استضفتُه في جامعة وستمنستر في مطلع القرن الحادي والعشرين، أثناء ترحيبي به في جمع من الأصدقاء والمعجبين: "هذه فرصة لأثبت للصديق البروفيسور مزروعي خطل ما ذهب إليه حول هامشية السودان المركَّبة؛ إذ نحن أصل أفريقيا وحضاراتها، وفي رواية أصل العرب أيضًا. أما الإسلام فقد أزر إلى ديارنا في نهضتنا المهدوية. أما هوية النطق بالإنكليزية فلا ننازعك فيها!".

واللافت أن السودان ربما يكون البلد الوحيد الذي سبقت فيه سجالاتُ الهوية فكرةَ الدولة نفسها. فكما نرى في هذا الكتاب، انهمر أول وابل من السجالات حول مستقبل السودان عشية العشرينيات من القرن العشرين، حينما كانت البلاد لا تزال في بداية الحقبة الاستعمارية، وفي وسط بضع مئات من خرّيجي المدارس الحديثة في البلاد. وكان مناط السجال وقتها متمثلًا في السؤال التالي: أيصبح السودان دولة مستقلة، أم يتجه إلى الوحدة مع مصر؟ والمفارقة هي أن الهوية السودانية كانت قد تشكّلت بوضوح حينئذ؛ حيث إن طرفَي السجال كانا يطرحان نفسيهما ناطقَين باسمها. إلا أن طرفًا كان يرى في التوحد مع الشعب المصري قوة وعزة في الصراع ضد الاستعمار الأجنبي، ورصيدًا ثقافيًا وفكريًا يستند إلى ما أنجزته مصر في هذا المجال. أما الطرف الآخر، المهووس بظلام فترة الحكم المصري السابقة للثورة المهدية (والمتشبع بأفكار تلك الثورة) فكان يتوجّس من علاقة غير متكافئة معها قد تعيد عقارب الساعة إلى الوراء، ولهذا رأى في الاستناد إلى بريطانيا والاستقواء بها فرصةً أكبر لتقوية استقلال السودان والحفاظ على هويته.

ومهما يكن، فإن الطرفين اتفقا في النهاية على استقلال السودان، بعيدًا عن شريكَي الحكم الثنائي، وخرج السودان إلى الوجود بلدًا مستقلًا، مع بعض التوترات مع مصر الناصرية التي لم يُرضها ذلك. بيد أن شريكًا ثالثًا دخل الميدان، وهو الجنوب السوداني الذي ظل خارج السجالات السابقة كلها، ومنقطعًا عن الثقافة السودانية طوال سالف قرونها. وقد ساهمت أحداث عنف في مصر والسودان (شماله وجنوبه) في عامَي 1954 و1955 في الإجماع على قرار الاستقلال. وتمثلت هذه في أحداث العنف في آذار/ مارس 1954، بين الشرطة ومتظاهرين من طائفة أنصار المهدية، لدى استقبال الرئيس المصري محمد نجيب الذي جاء ليشهد افتتاح البرلمان السوداني. وأعقب ذلك إقالة نجيب في نهاية عام 1954، ثم إعدامات لأعضاء في جماعة الإخوان المسلمين في مطلع عام 1955. وفي آب/ أغسطس 1955، تمرّدت بعض وحدات فرقة الاستوائية (عماد الجيش في الجنوب)، رافقته أحداث دامية نجم عنها مقتل مئات المدنيين الشماليين المقيمين في الجنوب، بمن فيهم النساء والأطفال. حينها اتفقت الحكومة والمعارضة على إعلان الاستقلال من داخل البرلمان بإجماع أعضائه، من دون انتظار الاستفتاء الذي نصّت عليه اتفاقية الحكم الذاتي لعام 1953.

صوّتت الكتلة الجنوبية (وهي رافضة أساسًا لفكرة الوحدة مع مصر) لصالح الاستقلال، مع اشتراط أن يكون موضوع الفدرالية في أولويات أجندة البرلمان الجديد. لكنّ لجنة الدستور رفضت مطلب الفدرالية؛ ما فجّر خلافات عميقة بين نواب الجنوب والشمال. تفاقمت الخلافات بعد انقلاب عام 1958، خاصة بعد قرار الحكومة العسكرية حل البرلمان، ما حرم الجنوبيين من المنبر الوحيد الذي كانوا يطرحون فيه مطالبهم السياسية. كما أن الحكومة العسكرية خلت من وزراء جنوبيين، وعيّنت ضباطًا عسكريين لإدارة مديريات الجنوب. وزاد الطين بلة قرارات للحكومة في مطلع الستينيات بإعلان اللغة العربية لغة الإدارة في الجنوب ولغة التدريس في المدارس الحكومية، مع إنشاء مدارس لتدريس الدين الإسلامي واللغة العربية. وأضافت الحكومة قرارًا بطرد الإرساليات الأجنبية من الجنوب في عام 1962. وأدت كل تلك الإجراءات إلى تفجّر الأوضاع في الجنوب، وعودة الحرب الأهلية، كما نفصل في هذا الكتاب.

وضع كل هذا قضية الهوية في الواجهة مرةً أخرى، وعلى نحو أكثر حدة. ففي حين كانت الأطراف المتصارعة في الحقبة الأولى موحّدة حول اللغة العربية والدين الإسلامي والتقاليد الموروثة في السودان الشمالي، كان سكان الجنوب رافضين لكل هذا. فخلال المداولات حول الدستور في الستينيات، رفض ممثلو الجنوب إضافة أيّ إشارة إلى عروبة السودان أو إلى الدين الإسلامي في أيّ نص دستوري. ويشمل ذلك حتى الانضمام إلى جامعة الدول العربية.

توصّل السودانيون إلى حل وسط مع اتفاقية أديس أبابا التي أنهت الحرب في عام 1972، وأعطت الجنوب حكمًا ذاتيًا، وأعطت وزنًا أكبر لانتماء السودان الأفريقي، في مقابل انسحابه من مشاريع عروبية، مثل مشروع الوحدة الرباعية مع مصر وسورية وليبيا. إلا أن عودة الحرب في عام 1983 أعادت طرح الهوية على نحو أقوى، خاصة أن العقيد جون قرنق، زعيم الحركة الشعبية، تخلّى عن مطالب الحكم الذاتي والانفصال، لصالح إقامة سودان موحّد على أساس هوية "سودانوية" واحدة غير محددة المعالم، ولكنها تؤكد على تخفيف المركّب العروبي-الإسلامي في الهوية السودانية.

أخذ هذا الكتاب، بطبيعة الحال، هذه الخلفية في الاعتبار، ولكنّ المؤثرات المباشرة تعود إلى عملي في أطروحة الدكتوراه (1986-1989) في جامعة ريدينغ

في المملكة المتحدة، التي تناولت جذور الحركة الإسلامية الحديثة في السودان وتطورها من منتصف الأربعينيات إلى وقت الشروع في الأطروحة. وفي تلك الفترة، لفتت انتباهي لمحات من مظاهر الاستقطاب الطائفي والقبلي خلال تاريخ السودان الحديث. فعلى سبيل المثال، سمعتُ من عدد ممن أجريتُ معهم مقابلات إجابات أو ملاحظات حول العلاقة بين الحركة الإسلامية والاستقطاب الطائفي. ووردت إشارات مفادها أن الغالبية ممن انتموا إلى الحركة كانوا ذوي خلفية "أنصارية" (أي من أُسر كانت من أنصار الحركة المهدية، وغالبًا من الريف)، في حين لوحظ عزوف غالبية منتسبي الطائفة الختمية عنها. وبرزت كذلك ملاحظات أخرى عن تفسيرٍ راج بين بعض الإسلاميين حول ما بدا أنه تقارب مؤقت بين الحزب الشيوعي والنظام العسكري للفريق إبراهيم عبود في مطلع الستينيات، خاصة حين قرر الحزب الشيوعي خوض انتخابات المجلس المركزي (الذي كان برلمانًا صوريًا) في أواخر عام 1963. ففي حين فسّره بعضهم بتأثير زيارة الزعيم السوفياتي ليونيد بريجنيف للخرطوم في عام 1961، اختار آخرون التفسير "القبَلي"، مشيرين إلى الرابط القبَلي بين زعيم الحزب الشيوعي عبد الخالق محجوب، والرئيس عبود، ووزير الخارجية أحمد خير المحامي، ورئيس القضاء محمد أحمد أبو رنات (من واقع انتماء الكل إلى قبيلة الشايقية في شمال السودان). وعلى الرغم من عدم جدّية هذين التفسيرين، فإنهما يشيران إلى نفوذ القبَلية والطائفية معًا في الوعي واللاوعي.

اطلعتُ، خلال الفترة نفسها، على كتاب فرانسيس دينق (1973) الذي وضع فيه مسألة الهوية في قلب الصراع في السودان، ولا سيما الهوية العربية؛ إذ يرى أن الغالبية في شمال السودان تشربت الهوية العربية الإسلامية، واتخذتها أداةً للتمييز ضد العنصر الأفريقي في الجنوب، الذي قاوم هذه الهوية. ويجادل دينق بأنها هوية مصطنعة، لأن اللون يشكّك في مزاعم الانتماء العربي. ويؤيد هذا أن السودانيين "العرب" يتعرضون للتمييز في البلدان العربية التي لا تعترف بعروبتهم. وبناءً عليه، يتمثل الحل في أن يتخلى السودانيون الشماليون عن أوهام هذه الهوية المتخيلة، ويعودوا إلى هويتهم الأفريقية الحقيقية، فيلتحموا مع إخوتهم في الجنوب في هوية أفريقية واحدة. وقد تبنت الحركة الشعبية، حين انطلاقها في عام 1983، هذا المنظور، ودعت إلى هوية سودانية "أفريقانية" توحّد كل السودانيين. وأصبح هذا الطرح محور معظم النقاشات السياسية التي سادت تلك الفترة.

في المقابل، طرح مؤلّف هذا الكتاب فرضية مفادها أن محور الاستقطاب الذي ساد حينها يعكس تبلور هويتين متصادمتين "وصحوتهما"، تعرّف كل منهما نفسها تعريفًا سلبيًا في مواجهة الأخرى. فالجنوب عرّف نفسه في بداية المواجهة بأنه نقيض "الشمال العربي"، مع شيء من معاداة الإسلام. ولعلها مفارقة (تناقض نفي العروبة عن الشمال كما لدى دينق وقرنق وغيرهما) أن الجنوبيين كانوا، في البداية، يصفون كل شمالي بأنه "عربي". وفي النتيجة، ركّزت "الصحوة القومية" الجنوبية، التي قادتها الحركة الشعبية في الثمانينيات، على توحيد أهل الجنوب حول هوية "لا-عربية"، وحول المطالبة بالمساواة للأفارقة في السودان وإنهاء التمييز و"التهميش" اللذين يتعرّضون لهما. وخلال الفترة نفسها، كانت الجبهة القومية الإسلامية، التي نشأت بوصفها حركة إسلامية تدعو إلى تعميق الهوية الإسلامية وتطبيق تعاليم الإسلام، قد مالت خلال النصف الثاني من الثمانينيات نحو تنصيب نفسها داعمةً للهوية الشمالية ضد ما وصفته بالتهديد الجنوبي لها. وجاء هذا على خلفية التحوّل الأيديولوجي للحركة المسلحة في الجنوب بقيادة الحركة الشعبية، من دعوات الانفصال إلى الدعوة إلى سودان موحّد تحكمه الحركة. وتعزز هذا الخطاب واكتسب هذا "الخطر" شيئًا من الصدقية مع نجاحات الحركة في إلحاق هزائم متتابعة بالجيش في الجنوب، وبداية زحفها إلى مناطق شمالية في جنوب كردفان وجنوب دارفور. وقد حققت الجبهة معظم انتصاراتها الانتخابية في انتخابات عام 1986 بناءً على هذه الدعاية، أكثر من شعاراتها الإسلامية، كما أشرتُ إلى ذلك في دراسة نشرتها في دورية أكاديمية عام 1990(1).

وقد حظيت هذه الدراسة، لأنها نُشرت بالإنكليزية، باهتمام في الأوساط الجنوبية جاء أوسع وأعمق مما كان في الشمال، وأثارت نقاشات عديدة. وكان محط استغرابي أنها نالت إعجاب منتسبي الحركة الشعبية ومثقفي الجنوب عمومًا، وأصبحت مجال نقاش معي كلما التقينا.

في المقابل، دار نقاش آخر بيني وبين الصديق دينق في منتصف التسعينيات حول كتابه **حرب الرؤى** (1995)، الذي كرر فيه نظريته حول "لا-عروبة عرب السودان".

---

(1) Abdelwahab El-Affendi, "'Discovering the South': Sudanese Dilemmas for Islam in Africa," *African Affairs*, vol. 89, no. 356 (1990), pp. 371-389.

وقد بلغ عدد المقالات التي نُشرت في هذا السجال، في نهاية ربيع 1995، ثمانيَ مقالات في صحيفة **القدس العربي**، نقلتها عنها أيضًا صحف سودانية، وجُمعت بعد ذلك في عدد من دورية سودانية. فقد نشرتُ أربع مقالات في الصحيفة كمراجعة للكتاب، رد عليها دينق منتقدًا، فرددت عليه بمقالة تشرح أن نقده استند إلى فهم خاطئ لما كتب، فرد مصححًا لما قال، ورددتُ بمقالة أخرى.

تناولتُ في وقت لاحق موضوع الأعماق التاريخية للهوية السودانية في محاضرات ألقيتُها في جامعة نورث ويسترن في شيكاغو، حيث كنتُ أستاذًا زائرًا في ربيع 2002، وتمحورت حول الهوية السنارية، ونشرتُ ملخّصًا أوليًا لها فصلًا في كتاب حرّرته إيمان النور على شرف الراحل الأديب والمثقف والصديق، الطيب صالح، وأصدره مركز عبد الكريم ميرغني في أم درمان في عام 2010 بعنوان: **هذا هو المكان: في تذكُّر الطيب صالح**.

نشرتُ بعد ذلك على صفحات **القدس العربي**، في عام 2010 أيضًا (وتحديدًا في 5 حزيران/ يونيو)، مقالة قصيرة جدًا بعنوان "الكنداكة والقيصر: رمزية صراع روما ومروي"، لخّصتُ فيها إحدى حلقات سلسلة إذاعية بثّها **راديو 4 على هيئة الإذاعة البريطانية** (BBC Radio 4) بعنوان: "تاريخ العالم في مئة قطعة"، أعدها وأذاعها مدير المتحف البريطاني وقتها نيل ماكريغر. وقد هدفت السلسلة إلى تتبّع أهم التطورات التاريخية التي شهدها العالم عبر القرون بتأمّل بعض القطع والتحف الأثرية، مع شرح ظروف صناعتها واستخدامها، ثم كيفية العثور عليها، ودلالاتها. وركزتُ في المقالة على الحلقة رقم 35 (21 أيار/ مايو 2010)، التي تناولت رأس التمثال النادر المعروض في المتحف البريطاني للإمبراطور أغسطس، أول الأباطرة الرومان، و"أشهر حكام العالم وأحد أبرز السياسيين في التاريخ"، بحسب ماكريغر. وقد عُثر على رأس التمثال في عام 1910 (أي قبل مئة عام من إذاعة الحلقة) في مدينة مروي في شمال السودان، وهي منطقة لم يبلغها سلطان أغسطس ولا أيٌّ من أسلافه وخلفائه قط.

روى ماكريغر قصة التمثال، والحرب التي قادتها الملكة المروية أمانيريناس المعروفة بالكنداكة ("كانديس" أو "كانداش" عند الأوروبيين)، وهو لقب حملته عدة ملكات نوبيات. وقد حكمت بين عامَي 25ق.م و20م، وحصلت على التمثال من

غارة لها على أسوان الواقعة تحت الحكم الروماني حوالى عام 21ق.م، ردًا على تعديات جنود أغسطس على مملكتها، ومحاولتهم فرض إتاوات. وقد قطع جنودها رأس التمثال (الذي نُصب رمزًا للسيادة الرومانية)، ثم دفنوه عند مدخل أحد المعابد (حتى يطأه الداخلون إمعانًا في المهانة). وكانت ردّة فعل الإمبراطور أن دعا سفراء الكنداكة إلى مقره المؤقت في جزيرة ساموس الإغريقية، حيث عقد معهم اتفاقية "عدم اعتداء" في عام 21ق.م، استجاب فيها لكل مطالب المرويين، مع اتفاقٍ على الحدود. ويضيف ماكريغر أن الدعاية الرومانية صوّرت ما حدث على أنه "نصر مؤزر" للإمبراطور، مع أن النصر كان للكنداكة، المشهورة أيضًا بـ "الكنداكة العوراء". ومن المؤكد أن مروي كانت المملكة الأولى والأخيرة التي عقدت معها روما معاهدة سلام.

ومن هذه السطور القليلة انبثقت فكرة الفصل الأول في هذا الكتاب، الذي حمل العنوان نفسه، وتبنّى الفرضية الأساسية فيه، وهي الاستمرارية النسبية للكيان الذي أصبح فيما بعد شمال السودان، وهويته "النوبية". وكما ورد في ذلك الفصل، وفي الفصل الثاني حول الحقبة السنارية، فقد وصف عدد من المؤرخين الحقبة السنارية بأنها كانت "صحوة نوبية"؛ بمعنى أنها استمرار للهوية النوبية التي تضرب جذورها في أكثر من أربعة آلاف عام، واستمرار للدولة التي تعود، على الأقل، إلى بدايات القرن الأول قبل الميلاد (وليس استيلاءً للعرب على تلك الأرض).

وقد بدأتُ بجدّية في العمل في الكتاب خلال عامَي 2016 و2017، أنجزتُ فيهما الفصول عن بابكر بدري وحاج الماحي ثم الخليفة عبد الله. وبسبب كثرة المشاغل، لم يستمر العمل بالوتيرة المفروضة، خاصة أنني عكفتُ في الفترة نفسها على إخراج ثلاثة كتب أخرى، وعدد من المقالات وفصول الكتب، فضلًا عن مهمات التدريس والإدارة والخدمة، والاهتمام بالشأن العام في السودان وعالمنا العربي وغير ذلك. ومع مطلع عام 2020، عام جائحة فيروس كورونا المستجد (كوفيد-19)، أعددتُ مسودات تسعة فصول، وعدتُ فيه إلى العمل بجدّ، لكن لم أستطع أن أعمل إلا بمعدل فصل واحد في العام. وبحلول عام 2024، تمكّنت من إكمال الفصول الأربعة الأخيرة، واستغرقت المراجعات بقية ذلك العام.

وبناء عليه، كان إعداد هذا الكتاب "أوديسا" طويلة من البحث والتنقيب في التاريخ القديم، وفي سير القدماء والمحدثين، والسجالات السياسية المعاصرة والقريبة. وقد سعدتُ بأنني تواصلتُ وجهًا لوجه، وعن قرب، مع العديد من الشخصيات التي وردت سيرها في هذا الكتاب. وبطبيعة الحال، لم يكن ممكنًا تضمين سير العديد ممن كنت أرغب من الشخصيات المهمة ورؤاها، بسبب ضيق المساحة. وكان ينبغي، مثلًا، إدراج سيرة الزعيم إسماعيل الأزهري، أول رئيس وزراء للسودان المستقل، ورئيس مجلس السيادة خلال الحقبة الديمقراطية المهمة في الستينيات، بسبب قلة المواد حول نظرته للهوية. وقد أشرنا إلى مساهماته الرئيسة في مواضع مختلفة من الكتاب، خاصة في الفصل الختامي. وكنت أنوي تضمين سيرة الصديق الراحل بونا ملوال ومساهماته في قائمة فصول هذا الكتاب، خاصة مع توافر كتابات مهمة له، وربما أفعل ذلك في طبعة قادمة. وكنتُ مهتمًا بشخصية الشريف حسين الهندي، وزير المالية الأسبق وأحد أبرز زعماء المعارضة لحكم الرئيس جعفر محمد نميري؛ إذ يلفّ سيرته الكثير من الغموض، وشيء من السحر. وفكرتُ كذلك في إدراج سيرة البروفيسور علي شمو وآخرين من الصحافيين المخضرمين. وفي كتاب عن الهوية، ربما كان يحسن أيضًا ضم العديد من الأدباء والشعراء والكتّاب وكبار الصحافيين والأكاديميين والمفكرين والزعامات الدينية والسياسية.

لكنّ إحدى أبرز العقبات التي حالت دون توسيع الدائرة وإطالة القائمة، حتى لو كان ذلك في مؤلفات مستقبلية، تكمن في مشكلة توافر المادة. فأفضل المواد هو ما يكتبه أصحاب السيرة، إما عبر سيرة ذاتية، أو في كتابات أدبية وثقافية وفكرية تتناول موضوع الهوية، أو أعمال شعرية وأدبية تساهم في صياغتها. ويلي ذلك السير غير المباشرة، مثل كتاب ود ضيف الله عن شخصيات الحقبة السنارية، أو كتب حسن نجيلة عن المساجلات الفكرية والأدبية والسياسية لجيل الخريجين المبكر. ثم تأتي المقابلات الصحافية أو التوثيقية مع الشخصيات. ولم يكن هذا متوافرًا لكثير من الشخصيات المهمة التي أشرنا إليها. ولعل هذه مناسبة سانحة لحثّ الشخصيات المؤثّرة على نشر سيرها الذاتية، وتشجيع الصحافيين والكتّاب على اقتفاء سنّة ود ضيف الله ونجيلة في بناء سجلات مماثلة حول سير الشخصيات التي أثْرت الحياة السودانية ومساهماتها.

يصعب عليّ إحصاء كلّ من ساهم في هذا الكتاب، فقد استغرق إعداده سنوات عديدة. وأنا مدين، بطبيعة الحال، للكتّاب والمؤرخين، وفي مقدّمتهم أستاذنا الراحل نجيلة، ولفتته العبقرية لتسجيل المساهمات الفكرية والأدبية والسياسية لجيل العشرينيات، وهو الجيل الرائد في رسم خطوط الساحة السياسية والفكرية مع فجر الحداثة السودانية. والشكر موصول لكتّاب السير، سواء أكانت سيرًا ذاتية أم سيرًا للآخرين، ولكل المساهمين في سجالات الهوية.

ويظل القِدح المُعلّى في هذا المجال للصديق فرانسيس دينق، الذي لم يكتفِ بنشر كتابات غزيرة في موضوع الهوية، ثم نشر سيرة والده الزعيم دينق مجوك، وكلها تحتوي على معلومات قيّمة عن تحديات الهوية وصراعاتها في الركن الجنوبي الغربي من شمال السودان، بل أضاف إلى ذلك كتابة سيرته الذاتية، وأطلعني على كتابات مهمة له لم تُنشر بعد. هذا فضلًا عن حواراتنا العديدة والطويلة عن أمور ذات صلة؛ حيث ظللنا نلتقي سنويًا تقريبًا (ومرات أكثر من مرة في العام) في واشنطن وأديس أبابا، وأحيانًا في الخرطوم، في إطار جهودنا المشتركة الطوعية لدعم عملية السلام في السودان. فله مني جزيل الشكر على هذا الكرم. وأنا ممتن أيضًا لطالبي السابق (البلغاري الأصل، المتمكّن من العربية) ميتودي باشيف لجهوده معي مساعدًا للبحث. والشكر أيضًا للأستاذة رباح الصادق المهدي لتزويدي بنسخة إلكترونية من الأجزاء الثلاثة الأولى من كتابها **الإمام الصادق المهدي: سيرة ومسيرة** (2019)، ويجدر التذكير بأن الإمام الراحل كان من أكثر السياسيين السودانيين كتابة. وأشيد كذلك بالملاحظات القيّمة على المخطوطة من الصديق والمؤرخ أحمد إبراهيم أبوشوك.

وأعرب عن تقديري للمؤرخ الإيرلندي الراحل شون أوفاهي، أحد أهم مؤرخي دارفور، والمتقن للغة الفور، والذي سعدتُ بمساجلات مهمة معه عبر سنوات عدة خلال زياراتي لجامعة بيرغن في النرويج، ثم جامعة نورث ويسترن وأخص بالشكر والعرفان أيضًا الدكتور غونار سوربو، عالم الاجتماع الخبير بالشأن السوداني، ومدير معهد كريستيان ميكلسن في بيرغن، الذي استضافني مرتين في بيرغن، وزارني بمنزلي في لندن. وكل الشكر لصديق الشباب الراحل أنور عبد الماجد، عالم الآثار الجليل، الذي أفادني بمعارفه العميقة في أمور التاريخ السوداني. ولا يفوتني أن

أنوّه بمساهمات أساتذتنا الراحلين، الطيب صالح، ومحمد الحسن أحمد، وإبراهيم الشوش؛ إذ كانت لقاءاتنا شبه الأسبوعية بصحبتهم في لندن أشبه بندوات فكرية لا تترك أمرًا من أمور الوطن إلا تناولته. وأقر بالفضل أيضًا للصديق الراحل محمد سعيد محمد الحسن، الذي تعرّفت عبره إلى صهره الأستاذ نجيلة، ولا يزال يجيب عن أسئلتي عن بعض كتابات نجيلة. وأقدّر كذلك كرم الأستاذ علي شمو بإجابته عن أسئلة مهمة.

شكر خاص أيضًا للدكتور يوسف عايدابي، الأستاذ الجامعي والمسرحي والسينمائي، ورابع أربعة شكّلوا في الستينات حركة "الغابة والصحراء"، أهم مبادرات تعزيز الهوية الواحدة في السودان. فقد سعدت بمقابلة هاتفية معه في أيلول/ سبتمبر 2025، كانت ثرية بالمعلومات عن قضايا متعددة تتعلق بالهوية وغيرها من هموم الوطن. والشكر أيضًا للصديق الصحافي المعروف حسن أبو عرفات على مساعدتي في الوصول إليه.

ولا يسعني في ختام هذه السطور إلا أن أشكر الزميلات والزملاء في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات على مهنيتهم العالية، ودعمهم خلال عملية النشر.

وأعتذر عن التقصير في ذكر كثير ممن ساهم ودعم.

عبد الوهاب الأفندي